

العتاب والاعتذارات :

وقد توسع البحترى في عتاب ممدوحيه وأصدقائه أو الاعتذار إليهم ، وكان الشعراء من قبل مقتصدين في هذا الباب ، كما أبدع في هذا الفن ، ولون أساليبه ، الأمر الذي لفت أنظار النقاد منذ القدم (١٣٧) .
ويبدو أنه لا سبيل إلى الفصل بين العتاب والاعتذار لديه ، إذ إن بين الغرضين ارتباطاً وثيقاً ، فهو يعتب على ممدوحيه ، حين يلمس تغييرهم عليه ، وقد يتبع ذلك بالاعتذار عما يكون قد بدر منه ، أو يبدأ بالاعتذار ثم يتبعه بالعتاب .

ويلاحظ أن هناك اختلافاً واضحاً في أساليب الاعتذار والعتاب بين القدماء - وبخاصة النابغة الذبياني - من جهة ، والبحترى من جهة أخرى ؛ فاعتذارات النابغة التي طالما أشاد بها النقاد ، تكاد تنحصر في دائرة ضيقة ، وهي مرتبطة بالخوف ، إذ إنه أحد الشعراء الأربعة الكبار إذا رهب ، كما يقولون ، ولذلك نجده يتذلل ويسترحم ويصف سوء حاله ، ويناشد سيده أن يعفو عنه ويغفر زلته وينقذه من الضيق والرعب ، ويكاد لا يجاوز هذه المعاني التي يبالغ في توكيدها مبالغة كبيرة كعادة القدماء .

أما اعتذارات البحترى فمجالها أكثر سعة ورحابة ، إذ نجد فيها تنوع الأساليب وتعدد الألوان ، وهو فيما يقول عزيز الجانب ، معتد بنفسه ، لا ترده الرهبة عن محاوره من يعتذر إليهم ، ولذلك نراه يمزج الاعتذار بالعتاب ، وبذلك يجعل من نفسه نداً لمن يخاطبهم ، فيجادلهم ، ويذكر فضله عليهم ، من جهة كون شعره سبباً في ذبوع صيتهم ، ويلومهم ، وقد يلمح بتهديدهم ، أو يتفضل عليهم بالكف عن مجازاتهم بالهجو .

ومن المؤكد أن النابغة - على سبيل المثال - معذور حين تنحصر اعتذاراته في نطاق ضيق ، وتغلب عليه معاني الخوف والذلة ، فهو يقف أقواله على مخاطبة رجل واحد ، شاءت الظروف أن يكون حاكماً مستبداً شديداً البطش ، على حين تختلف الحال فيما يتصل بالبحترى ، إذ هو يخاطب عدداً وفيراً من الوزراء والقواد والكتاب ، وهم يعرفون منزلته الشعرية العالية ، وسطوة لسانه ، ومكانته عند الخلفاء ، فلا يقوون على التصدي له أو إيذائه . والذي

(١٣٧) يقول ابن رشيقي في العمدة ٢ : ١٦٠ « وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة البحترى » .